بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما بدأت أفكر في اختيار موضوع لهذا البحث تبادرت إلى خاطري موضوعات عديدة عن الأدب شعره ونثره، ثم وقع اختياري على النثر في عهدي الدولتين الزّنكية والأيّوبية، لأنَّ هذا النثر لم يدرس من قبل دراسة مستقلة وشاملة، كما أنَّ معظم دراسات النثر في هذا العصر تناولت الخطابة، وركزت على الرسائل الديوانية وخصائصها، وكأنها دون غيرها تمثل النثر الفني كله.

ومن الباحثين الذين اهتموا بالنثر من خلال حديثهم عن الأدب أو عن الحياة الأدبية أو من خلال دراستهم لبعض النصوص الأدبية في هذا العصر: محمد سيد كيلاني في كتابه «الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام»، وعبد اللطيف حمزة في كتابه «أدب الحروب الصليبية»، وأحمد بدوي في كتابه «الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام»، ومحمد زغلول سلام في كتابه «الأدب في العصر الأيوبي»، وعمر موسى باشا في كتابه «أدب الدول المتتابعة (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)»، وعمر الساريسي في كتابه «نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية»، وعبدالجليل عبدالمهدي في كتابه «بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية».

وقد حاولت في هذا البحث أن أقدم دراسة منهجية للنثر الفني في ذلك العصر فجاء البحث فضلاً عن المقدمة والملخص في تمهيد وأربعة فصول:

فقد قدمت لهذا البحث بتمهيد عن حضارة ذلك العصر من النواحي السياسية، والاجتماعية، والفكرية، والأدبية، ثم تناولت في الفصلين الأول والثاني أهم الموضوعات السياسية، والاجتماعية، والذاتية، التي تناولها الناثرون - آنذاك - ثم حاولت في الفصل الثالث تحديد أهم الفنون النثرية وبيان أهم خصائصها، ثم تحدثت في الفصل الرابع عن الدراسات النقدية، والمذاهب

الأدبية، وآراء النقاد القدامى والمحدثين في ذلك النثر، ثم ختمت البحث بملخص أوجزت فيه أهم ما توصلت إليه من نتائج.

ولم أُعْنَ في هذا البحث بسير الكتاب والناثرين لأن كثيراً من الباحثين قد درسوها، بل صرفت جل اهتمامي إلى عرض النصوص الأدبية ذاتها ودراستها.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة كبيرة من المصادر مثل: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ومنامات الوهراني ومقاماته ورسائله، والاعتبار، والبديع في نقد الشعر، والعصا، ولباب الآداب، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ، وإنشاءات القاضي الفاضل، والدر النظيم من ترسل عبدالرحيم اختيار ابن عبد الظاهر، والبرق الشامي، وخريدة القصر وجريدة العصر، والفتح القسّي في الفتح القدسي للعماد الكاتب الأصفهاني، وقوانين الدواوين لأسعد بن مَماتي، ودار الطراز لابن سناء الملك، ورحلة ابن جبير، ومعجم الأدباء، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والإفادة والاعتبار لعبداللطيف البغدادي، والكامل في التاريخ، والتاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابكية بالموصل لابن الأثير، والنوادر السلطانية لابن شداد، ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث القرشي، والاستدراك، والجامع الكبير، وديوان رسائل ابن الأثير: الجزء الثاني، ورسائل ابن الأثير (تحقيق المقدسي)، ورسائل ابن الأثير (تحقيق القيسي وناجي)، والمثل السائر، والمفتاح المنشا لحديقة الإنشا لضياء الدين بن الأثير، والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي... وغيرها.

ومن المراجع الحديثة التي أفدت منها – أيضاً – أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة، والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية لأحمد بدوي، والأدب في العصر الأيوبي لمحمد زغلول سلام، وأدب الدول المتتابعة لعمر موسى باشا، وفن السيرة لإحسان عباس... وغيرها.

وقد واجهتني صعوبات جمة في هذا العمل منها: طول هذا البحث، وتشعبه

كثيراً، واختلاف آراء الباحثين في أدب هذا العصر، كما أنَّ بعض المصادر من الكتب المطبوعة قد نفدت طبعاتها قديما حتى أنَّ بعضها غير موجود في المكتبات العامة الكبرى.

وقد بذلت كل ما أستطيع من جهد للتغلب على هذه المصاعب، فأمضيت في هذا البحث سنوات طوالاً، وحاولت أن أكون منهجياً ومنصفا في كل ما أقول بعيدا عن التعميم والتعصب، فإن وفقت فالفضل لله في ذلك، وإلا فأرجو المعذرة لأني لم أقصد غير العمل الجاد المنصف، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وفي الختام يطيب لي أن أستمطر شآبيب الرحمة على روح أستاذي العالم الجليل الدكتور محمود إبراهيم، لإشرافه على هذا البحث، ورعايته له منذ بدايته حتى نهايته، ولما منحني من وقته، ولما أفادني من علمه، وأسأل الله أن يجزيه عنّي خير الجزاء.

مصطفى محمود زايد